مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 5 (رت 74) السنة: 2023

الزاوية الزيانية ودورها في منطقة الساورة إلى غاية القرن 19م

The Zayani corner and its role in the Saura region until the 19th century AD

د. شبلي ربيعة[1]
جامعة طاهري محمد بشار
rabia.chebli@univ-bechar.dz

تاريخ الوصول 2022/12/23 القبول 2023/07/10 النشر على الخط 2023/09/15
Received 23/12/2022 Accepted 10/07/2023 Published online 15/09/2023

ملخص:

لقد احتلت الطرق الصوفية مكانة هامة في المجتمع الجزائري لا يمكن إنكارها، وكان للزوايا والفكر الصوفي تأثير وحضوريا قويا في الحياة، من حيث الدور العظيم الذي قدمته في نشر الوعي الديني والثقافي والتربوي في المجتمع منذ نشأتها عبر مراحل تاريخية متباينة. من هذا المنطلق وفي رحاب هذا العطاء لمؤسسة الزاوية أردت البحث في دور إحدى هذه الزوايا وهي الزاوية الزيانية القندوسية، والوقوف على الخلفية التاريخية لهذا الدور والحضور في أبعاده المختلفة.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الزوايا، الزيانية، الجنوب الغربي.

Abstract:

Sufi orders have occupied an undeniable important place in Algerian society, and the angles and Sufi thought had a strong influence and presence in life, in terms of the great role they played in spreading religious, cultural and educational awareness in society since their inception through different historical stages.

From this point of view, and in the context of this bid for the corner institution, I wanted to research the role of one of these corners, which is the Al-Zayania Al-Kundusi corner, and to stand on the historical background of this role and the presence in its various dimensions

***Keywords**: Sufism; angles; Al-Zayania; the southwest.*

[1] المؤلّف المراسل: شبلي ربيعة البريد الإلكتروني: **rabia.chebli@univ-bechar.dz**

1. مقدّمة:

تميز تاريخ الجزائر الحديث بانتشار ظاهرة التصوف، حتى باتت من الظواهر الاجتماعية ذات السمة البارزة والمميزة للمجتمع الجزائري آنذاك، بل أكثر من ذلك وجدت العديد من الطرق عبر كامل التراب الوطني دون استثناء.

على صعيد آخر إن الأوضاع التي عرفتها الجزائر منذ دخول العثمانيين إلى غاية الاستعمار الفرنسي تميزت بخصائص سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية أخذت منحى مغاير بفعل الظروف السائدة آنذاك، أخص بالذكر وضعية المجال الصحراوي والجنوب الغربي الجزائري الذي ظل بعيدا عن الحكم العثماني، بل لم يدخل في دائرة اهتماماته من الأساس، وبالتالي غياب سلطة سياسية فعلية في المنطقة.

من المعروف من الناحية التاريخية أن الوجود العثماني قد ارتبط بالجهاد البحري، وقد تمركزت سياسته في المناطق الساحلية و الشمالية من الجزائر، فلم يحاول بناء قاعدة للحكم تضم كل البلاد، ومن بين أسباب هذا التوجه هو كثرة التحديات التي واجهت الدولة العثمانية في ظل اتساع رقعتها الجغرافية.

إن وضعية الجنوب الغربي وحتى بعد دخول المستعمر الفرنسي قد ظل بعيدا مجددا عن الأنظار إلى مطلع القرن التاسع عشر ميلادي. بالموازاة مع هذا الحديث نجد بروز التيار الصوفي في الفضاء الصحراوي، كبديل لغياب السلطة الساسية إن هذا الانتشار الواسع للطرق الصوفية يجعلنا ويدفعنا للتساؤل عن السر وراء هذا الحضور القوي في كل أوساط المجتمع.

الإشكالية:

لعبت الزوايا في الجنوب الغربي دورا تاريخيا لا يستهان به، على عدة مستويات نذكر منها الجانب السياسي، الاجتماعي، التعليمي والثقافي في ظل غياب السلطة الفعلية. انطلاقا من الخلفية التاريخية للحضور الصوفي في الجنوب الغربي وأبعاده المختلفة، فيما تمثل دور الزاوية الزيانية في المنطقة على مختلف الأصعدة؟

المنهج المتبع:

اعتمدت في معالجة هذا المقال على المنهج التاريخي بخطواته المنتظمة التي وقفت من خلالها على حيثيات الموضوع.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة للوقوف على الدور الهام الذي لعبته الزاوية الزيانية في المنطقة، وذلك من خلال رصد العوامل المساعدة في إنتشار التصوف و هيمنة الزاوية على كافة مجالات الحياة (السياسية، الاجتماعية، الدينية....).

2. التعريف بالطريقة الزيانية:

تعريف الطريقة:

-لغة:

الطريقة من الطريق "والطريق: السبيل، تذكر وتؤنث، تقول الطريق الأعظم والطريق العظمى، وكذلك السبيل، والجمع أطرقة وطرق"[1]، الطريقة هي "السيرة. وطريقة الرجل: مذهبه. يقال: مازال فلان على طريقة واحدة أي على حالة واحدة. وفلان حسن الطريقة، والطريقة الحال. يقال هو على طريقة حسنة وطريقة سيئة"[2]. جمع طريقة طرائق، والطرائق: الفرق المختلفة الأهواء[3].

-اصطلاحا:

-الطريقة عند ابن خلدون هي المسلك الذي يتبعه الصوفي وهذا ما سنتدله من توظيفه لهذا المصطلح في قوله:"...أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية..."[4]،ويضيف"...أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم"[5].

-كما أن الطريقة عند الصوفية هي السيرة المختصة بالمتصوفة السالكين إلى الله، فهي سفر إلى الله تعالى[6].

أخد لفظ الطريق عند المتصوفة معنيين اصطلاحيين متعاقبين في التصوف الإسلامي "فهو في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين – الثالث والرابع الهجريين- عبارة عن منهج النفس الأخلاقي، يدبر عمليا ضروب السلوك الفردي. وهو بعد القرن الحادي عشر الميلادي –الخامس الهجري قد أصبح عبارة عن جملة مراسم التدبير الروحي المعمول به من أجل المعاشرة في الجماعات الإخوانية الإسلامية المختلفة، التي بدأت تنشأ منذ ذلك الحين"[7].

الطريقة الزيانية:

إحدى الطرق الصوفية البارزة التي ذاع صيتها بالجنوب الغربي الجزائري في القنادسة التابعة لمنطقة بشار، في أواخر القرن الحادي عشر الهجري (القرن17م)، على يد مؤسسها الشيخ محمد بن أبي زيان، انتشرت بشكل خاص بين قبيلتي ذوي منيع وأولاد جرير، وبوادي درعة وتافيلالت بالمغرب الأقصى حتى وصلت بلاد السودان.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب مج 10، ص220

[2] المصدر نفسه، ص221

[3] الزبيدي (محمد مرتضى)، تاج العروس من جواهر القاموس، ج26، تح: عبد الكريم العرباوي ،مر: مصطفى حجازي ،د.ط ،1990،مطبعة الحكومة ،الكويت ،ص84

[4] ابن خلدون، المقدمة، ص295.

[5] المصدر نفسه، ص 296

[6] النجار(عامر)، الطرق الصوفية في مصر (نشأتها و نظمها وروادها –الرفاعي-الجيلاني-البدوي-الشاذلي-الدسوقي)، ط5، د.ت دار المعارف، ص18

[7] النجار، مرجع سابق، ص20

فمن الناحية الروحية تتفق جميع المصادر وحتى المراجع الأجنبية*، على أن الطريقة الزيانية متفرعة عن الشاذلية، ولا تختلف عنها سوى في بعض الأذكار، وتشير مصادر الطريقة على أن الشيخ محمد بن بوزيان هو السابع والثلاثون في سلسلة الطريقة الشاذلية[1].

-سندها:

تقف العديد من المصادر والمراجع على الاختلاف الوارد فيما يخص سند الطريقة الزيانية الزروقي الشاذلي، وهذا ما لاحظناه عند كل من اليعقوبي2 والتازي3 ، فيما يخص سندها بعد الشيخ أحمد زروق إلى الشيخ ابن عطاء الله.

-الأوراد والأذكار:

تعتمد الطريقة الزيانية على مجموعة من الأوراد والأذكار هي كالتالي:

1.ملازمة الاستغفار (مائة مرة)، بنية تجديد التوبة.

2.الصلاة على النبي ﷺ على النحو التالي: اللهم صلّ على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما" (مائة مرة).

3.الهيللة بقول لا إله إلا الله (ألف مرة)، وعند تمام كل مائة منها يقال: محمد رسول الله.

4.قراءة القرآن في المصحف ولو خمسة أحزاب في اليوم، وقراءة دلائل الخيرات في كلّ يوم مرة إن أمكن أو جزء منه، وإن لم يتيسر فمرة كلّ جمعة.

5.صيام الاثنين والخميس أو ثلاثة أيام من كلّ شهر.

6.مطالعة كتب القوم خاصة: الحكم-الإحياء-القوت.

7.قيام آخر الليل بخمس تسليمات ولو بحزبين، وقبلها بركعتين خفيفتين الأولى بالفاتحة وسورة الكافرون-والثانية بالفاتحة والإخلاص[4].

الزاوية الزيانية*[1]: يصعب علينا من الناحية التاريخية تحديد تاريخ ظهور الزاوية، هنا نقف على مجموعة من الروايات التاريخية، التاريخية، فبعض الباحثين يرجع ظهور الزوايا بالمغرب الإسلامي عامة إلى القرن الرابع الهجري[2]، فحين يرجع ظهورها الرابطة التي

---

*من هذه المراجع الأجنبية يفصل لويس رين في كتابه "مرابطون وإخوان" حول سند الطريقة الزيانية.

-Rinn,Marabouts et khaouans,p 410-411

[1]سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1(1500-1830)،ط1،دار الغرب الإسلامي ،بيروت،1998،ص505.

[2]حسب ما أورده اليعقوبي فان الشيخ محمد بن أبي زيان يتصل بالشيخ مبارك بن محمد بن عبد العزيز-محمد بن ناصر الدرعي —عبد الله بن الحسين-؟ -أحمد بن علي الحاج -علي بن عبد الله-أحمد بن يوسف الملياني-أحمد زروق-؟ -؟ -؟ -السخاوي-القباب-ابن عطاء الله-أبو العباس المرسي-أبو الحسن الشاذلي. اليعقوبي، مصدر سابق، الورقة59-62

[3]أما التازي فيربط الشيخ محمد بن أبي زيان بالشيخ مبارك بن محمد بن عبد العزيز-محمد بن ناصر الدرعي —عبد الله بن الحسين-محمد بن ابراهيم-أحمد بن علي علي الحاج -علي بن عبد الله-أحمد بن يوسف الملياني-أحمد زروق-أحمد بن عقبة الحضرمي-يحي القادري —علي بن وفا —الشيخ وفا-داود الباخلي-ابن عطاء الله-أبو العباس المرسي-أبو الحسن الشاذلي. التازي، مصدر سابق، الورقة 216-217. /البشير، طهارة الأنفاس، الورقة38-39 /الغيثاوي، مرجع سابق، ص123.

[4]التازي، منهل الضمآن، الورقة252-253/البشير، طهارة الأنفاس، الورقة99-101/الغيثاوي، منجد الولهان، ص126-127

-Rinn,Marabouts et khaouans ,p411-412

نشأت في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، واستمرت في نشاطها إلى غاية نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري، وعلية فنشأة الزاوية في المغرب الأوسط يعود إلى النصف الثاني من القرن السابع الهجري[3*].

تأسيس الزاوية الزيانية :

لا تذكر المصادر تاريخا محددا لتأسيس الزاوية الزيانية، لكن من الثابت أن عملية التأسيس جاءت بعد رجوع الشيخ بن أبي زيان من فاس 1097هـ/1683م واستقراره بالقنادسة أي في القرن 17م.

عن تأسيس الزاوية كذلك تذكر المراجع الأجنبية إكرام قبيلة ذوي منيع للشيخ بن أبي زيان وترحابهم به معبرين عن رغبتهم في البقاء بينهم، لإتمام رسالته في الاصلاح والتربية والتعليم وتأسيس الزاوية، حيث كان يلقي دروسه الدينية والعلمية بها، التي كان يحضرها البدو الرحل وقبائل الشعابنة والتوارق. وعن الأمن ولاستقرار الذي تحقق بفضل بناء الزاوية عموما[4].

-مؤسّسها:

التعريف بالشيخ محمد بن أبي زيان:

-نسبه و مولده:

هو أمحمد بن عبد الرحمان بن أمحمد بن أبي زيان بن عبد الرحمان بن أحمد بن عثمان بن مسعود بن عبد الله بن أحمد الغزواني[1].

---

*نجد الاشتقاق اللغوي للزاوية في لسان العرب من الفعل الثلاثي زوي: الزي: مصدر زوي الشيء، يزويه، زيا وزويا فانزوى...، وزوى عنه سره: طواه. وزاوية البيت: ركنه والجمع زوايا، وتزوى صارفيها، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مج 14، مصدر سابق، ص ص363-365. أما إصطلاحا فقد تنوعت التعريفات نذكر منها: يعرفها دوماس بقوله: "إن الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة .... تشبه كثيرا الدور في العصور الوسطى"[1]، لأن الزاوية في الأصل كانت تطلق في بادئ الأمر على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو المصلى عند المسلمين، العقبي (صلاح مؤيد)، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، د.ط، دار البراق، لبنان ،2002، 331-333/ من ناحية أخرى يختلف معنى الزاوية بين المشارقة والمغاربة، فالزاوية عند أهل المشرق "هي مكان للعبادة وإيواء الواردين المحتاجين وإطعامهم، وتسمى في المشرق خانقاه وهو لفظ أعجمي يجمع على خانقاهات أو خانقاوات أو خوانق، أما عند المغاربة فقد لقبت ب "دار الكرامة" في بداياتها الأولى، مثل الزاوية التي أسسها المرابطون في فاس، والتي يشهد لها بتعدد الوظائف التي تقدمها للناس، بن لباد(الغالي) ،الزوايا في الغرب الجزائري- التجانية و العلوية و القادرية -(دراسة أنثروبولوجية) رسالة دكتوراه ،2008-2009 ،قسم الثقافة الشعبية ،جامعة تلمسان ، ص31

[2]العقبي ،المرجع نفسه ،ص302

[3]بونابي ، بونابي (الطاهر)،التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين /12و13 الميلاديين (نشأته-تياراته-دوره الإجتماعي والثقافي و الفكري و السياسي) ،دار الهدي للطباعة و النشر و التوزيع ،د.ط ،د.ت،عين مليلة ،الجزائر ،ص224

*يعتبر د.بونابي أن الزاوية في المغرب الأوسط هي الرابطة في بداية نشأتها و تطورها ،ومما يؤكد هذا الطرح الدور الذي لعبته هذه الرابطات الذي يوازي الدور الذي لعبته الزوايا مثل:رابطة عبد السلام التونسي في تلمسان و التي تأسست أواخر القرن الخامس الهجري ،وكانت تقوم بوظيفتين أساسيتين هما الانقطاع في التعبد و مكان لتجمع الطلبة.المرجع نفسه، ص224

[4] Gouvion(Marth),et(Edmond), kitab Ayane el-Marhariba ,imp.oriental,fontana frères ,Alger,1920,p211/Rinn,op-cit,p409

تختلف المصادر حول بيان شرف نسبه من عدمه، ولكن الثابت أن الشيخ بن أبي زيان لم يصرح إطلاقا بنسبه وهو ما ورد عند صاحب فتح المنان"...وقد صاحبته ما ينيف على عشرين سنة أقسمت عليك بالله ما رأيته قط ذكر أبا ولا جدا .... والذي أعتقده وأظنه أن نسبه –رضي الله عنه– بالنظر إلى ما خلق الله فيه من الحسب والجود والكرم، لا يتأتى إلا ممن أصله قرشي أو هاشمي لا محالة وفوق كل ذي علم عليم..."[2]

اشتهر بلقب الحاج محمد بن أبي زيان وهو لقب جده الثاني3. ولد حوالي 1062هـ/1650م بتاغيت أحد القصور الخمسة التي يسكنها بنو كومي[4].

-تعليمه:

تشير أغلب المصادر والمراجع إلى الظروف الصعبة التي عاشها الشيخ ابن أبي زيان بعد وفاة أمه وأبيه، مما جعله يخرج إلى سجلماسة قاصدا زاوية مبارك بن عزي الغرفي السجلماسي طالبا للعلم على الطريقة الناصرية*، بقي فيها إلى حدود سنة 1086هـ، ثم سافر بعد ذلك إلى مدينة فاس على إثر وفاة شيخه والتي أقام فيها ثمانية أعوام بغية التزود بما لم يجده من علوم في سجلماسة، لكن أوضاع المغرب لم تكن مستقرة بفعل الأوبئة وانتشار الأمراض والفتن، وعلى الرغم من كل هذه العوائق ،فقد جالس الشيخ بن أبي زيان الشيخ عبد القادر الفاسي وقرأ الحكم لابن عطاء الله[5].

كما أخد العلم عن الشيخ عبد السلام بن أحمد أوحمدون جسوس[6]، أحمد بن العربي المعروف بابن الحاج [7]، وأحمد اليمني[1]، كما ذكرنا آنفا لم يمكث بن أبي زيان سوى ثمان سنوات(1089هـ-1097هـ)، وخرج فارا من فاس بتهمة تعاطي السحر والشعوذة قاصدا القنادسة.

---

[1] التازي(الحاج علي بن عبد القادر) ،منهل الضمآن و مزيل الهموم و الكروب و الأحزان في كرامة شيخنا العارف بالله سيدنا الحاج بن أبي زيان ،مخطوط بدون رقم التصنيف، الخزانة القندوسية ، القنادسة ،بشار الجزائر ،الورقة ،ص216

[2] اليعقوبي (عبد الرحمن بن محمد)، فتح المنان في سيرة الشيخ محمد بن أبي زيان، مخطوط بدون رقم التصنيف، الخزانة القندوسية ،القنادسة ،بشار الجزائر ،الورقة ،ص68

[3] التازي ،المصدر نفسه ،ص216

[4] الغيثاوي(مولاي التهامي)،منجد الولهان في معرفة و مآثر الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان قدس الله روحه ،د.ط ،دار الهدى ،عين مليلة ،الجزائر ،د.ت ،ص5

[*] فرع من الطريقة اليوسيفية التي أسسها الشيخ أحمد بن يوسف الملياني .كان الشيخ محمد بن ناصر الدرعي أحد تلامذته وهو من منطقة وادي درعة بالمغرب الأقصى عرف بميله الشديد للطريقة الشاذلية(ت 1085هـ-1669م).ينظر:بوعرفة(عبد القادر)،معجم الفرق و النحل في الجزائر ،ط1، رياض العلوم للنشر و التوزيع ،2005،الجزائر ،ص103.

[5] الغيثاوي ،منجد الولهان ،ص ص 19-32

[6] عالم ومحدث صوفي ،وقد ذكره بن أبي زيان لتلامذته في معرض حديثه قائلا"شيخي الذي كنت أقرأ عليه ،شيخ الطريقة ،و بحر الحقيقة ،سيدي عبد السلام جسوس رحمه الله ".كما له معرفة بالنحو و اللغة و الفقه و الأصول و البيان و علم الحديث و الكلام .الغيثاوي ،المرجع نفسه ،ص33

[7] هو الشيخ أبو العباس أحمد بن العربي بن الحاج الفاسي ،ولد 1042 ،من العلماء العاملين ،و الصلحاء الواصلين ،ولي القضاء بفاس ،من الكتب التي درسها ألفية بن مالك و شمائل الترميذي و موطأ مالك و الشفا لعياض توفي 1109. التازي، منهل الضمآن ،الورقة 85/الغيثاوي ،المرجع نفسه،ص ص 34-35.

يعتبر لويس رين أن استقرار بن أبي زيان بالقنادسة جاء بطلب من قبائل ذوي منيع لأخذ بركاته[2]، فحين يرى البعض أن استقراره بالقنادسة لأنها البيئة المثالية للاختلاء والتقشف مواصلة لمسيرته التعبدية[3].

2.2 الدور التعليمي والاجتماعي للزاوية الزيانية:

أ/الدور التعليمي:

كان للزاوية صدى وأثر بالغين على الحياة الثقافية والدينية في المنطقة حيث لعبت دور في تحفيظ القرآن واحتضان اللغة العربية ونشر الإسلام وترسيخه لدى الأجيال، كما فتحت أبوبها للطلبة لتلقين العلم، وتذكر إيزابيل إيبرهارد أنه كان طالب من حميان المشرية وطالب آخر من الشرق سي عبد الوهاب، وغيرهم، وفي حديثنا عن إيزابيل حتى دخولها للزاوية كان بصفة طالب تونسي، يتنقل لأخد العلم. وتذكر إيزابيل أن هؤلاء الشبان الطلبة، يكتسبون مكانة مهمة تكفي بضعة أشهر أو بضعة سنين ليتغير طبعهم، فيشاركون في مداولات الجماعة، يشاركون في الحرب، والكثير منهم يسافر في البلاد الإسلامية وآخرون يذهبون إلى مكة[4].

أما عن نمط التعليم في الزاوية القندوسية، كان النمط التقليدي المعمول به آنذاك ويقدم في مختلف المراكز الثقافية، وهو تعليم العلوم الدينية بدءا بحفظ القرآن وانتهاءا بالتصوف، في هذا السياق تتحدث إيزابيل عن الطلبة فتقول: " لعدة سنين يدرس الطلبة المنتمين إلى الأخويات الصوفية، وفي مدارس بسيطة، وفي ديكور المساجد العتيقة العارية، يمارسون التقوى..... وهؤلاء الطلبة من أبناء المربوات والقصوريين، وكذلك يأتون من كل الجهات من أجل طلب العلم[5].

ب/الدور الاجتماعي:

لعبت الزاوية الزيانية أدوارا مهمة استنادا للسلطة الروحية للشيخ محمد بن أبي زيان والتي من أهمها:

1.رفع المظالم ونجدة المستغيث:

إحدى المهام الأساسية التي قام بها الشيخ، عن طريق حل النزاع وإقامة الصلح بين الناس، في هذا الصدد يشير صاحب منجد الولهان إلى أن الكرامات المتعلقة برفع المظالم ونجدة المستغيث حوالي (5/2)، بينما لا تمثل المتعلقة منها بالمكاشفة وسلب المخالفين والبركة إلا نسبة قليلة[6].

---

[1] هو أبو العباس سيدي أحمد بن الشيخ أبي العلاء ادريس الشريف اشتهر باليمني توفي 1113هـ ،يقول عنه بن أبي زيان "إني أكون ببيت العبادة بالمدرسة المذكورة –المصباحية– فإذا برجل يسأل عني حتى يقف عندي ويناولني طعاما جيدا من خبز أو غيره و يقول لي :سيدي أحمد اليمني بعث إليك به".التازي ،المصدر نفسه ،الورقة 63/الغيثاوي ،المرجع نفسه ،ص ص 35-36.

[2] Rinn(Louis) ,Marabouts et khaouans ,étude sur l'islam en Algérie , Adolphe Jourdan, libraire-éditeur ,Alger,1884,p409.

[3] الغيثاوي ،المرجع نفسه ،ص37

[4] السبتي(معلم)، إيزابيل ايبرهارد،اللغز الدائم (جوانب خفية من حياة الفارسة المسية)، الجزائر، ص130

[5] إيبرهارد(إيزابيل)، الطريق إلى القنادسة، الطريق إلى القنادسة (في ظلال الإسلام الدافئة)، تر: عبد القادر ميهي، ط1، دار الثقافة، واد سوف، الجزائر، 2012، ص109

[6] الغيثاوي ،مرجع سابق ،ص86

إن مثل هذا القول يعطي إشارة موضوعية حول طبيعة الوضعية الاجتماعية لسكان المنطقة والتي تميزت بغياب سلطة سياسية حاكمة وبالتالي انتشار المظالم والجور، لهذا وجه ابن أبي زيان قوته الروحية لرد الظلم بالموعظة الحسنة وإصلاح ذات البين، فعلى الرغم من صعوبة هذه المهمة وحساسيتها، إلا أنها أكسبته هيبة ووقار عند الناس، فأصبحت الزاوية الزيانية مقصدا لكل مظلوم أو مستغيث لافتكاك حقه ورفع الظلم عنه.

2.الإحسان والإكرام:

سرعان ما تحولت الزاوية لمؤسسة خيرية لإيواء الفقراء والإحسان إليهم، خاصة أن المنطقة عرفت سنوات القحط والجفاف. وهنا نشير لمسألة الأخذ والعطاء، فكما مثلت الزيارة موردا هاما للزاوية، فإن هذه الأخيرة لم تبخل على المحتاجين من مختلف العطاءات.

من الملاحظ أن عملية الإكرام كذلك والإطعام لم تختص بسكان المنطقة، بل شملت عابري السبيل خاصة ركب الحجيج وهنا نقف عند شهادة الناصري في مؤلفه الرحلة الناصرية الكبرى بقوله "...فوصلنا القنادسة ضحى يوم الخميس الأول من رجب...بعد أن تلقانا سكانها من المرابطين بني الشيخ ابن أبي زيان مظهرين الفرح والسرور، مشاة وركبانا، كهولا وشيوخا وصبيانا فتسابقوا وأخلوا بنادقهم، ونزل الركب على العادة بساحة ديارهم وبالغوا في القرى، ووجدنا جماعة وافرة منهم ومن أنضاف إليهم متأهبين للحج فأقمنا يومين"[1]. فيما تقدم دلالة واضحة على حسن وكرم الضيافة لوفد الحجيج.

هناك إشارة أخرى يوردها صاحب فتح المنان حول دور المرأة في الزاوية والإحسان للفقراء والمساكين هذا الدور مثلته زوجة الشيخ بن أبي زيان السيدة أم كلثوم بقوله "وكانت أم الأولاد الكرام السيدة أم كلثوم صالحة عارفة في أمور الضيافات، وكانت رضي الله عنها حليمة رفيقة وملجأ للأيتام، وكان من في الزاوية من الأيتام يأوي إليها وترحمه، وإذا فتح الله على الزاوية بشي من الفتوحات لا تترك أحد من الأيتام والفقراء والمساكين..."[2].

عطفا على دور المرأة داخل الزاوية نلاحظ مما تقدم من القول، أن الزاوية أضحت ملجأ ومأوى لليتامى والفقراء الذين وجدوا حسن المعاملة والإكرام، وبالتالي تحول فضاء الزاوية الروحي إلى فضاء اجتماعي مبني على أسس التكافل والترابط والتضامن الاجتماعي.

3.توفير الأمن والحماية:

من الأدوار البارزة التي اهتمت بها الزواية وجعلتها في مقدمة أولوياتها هي حماية المجال الصحراوي الذي كانت تعشش فيه اللصوصية. فالطرق التجارية كانت محل جذب للصوص نظرا لكثرة روادها والأهمية ما يحملونه إما كتجار جالبين لبضائع متنوعة أو كزوار ومريدين حاملين لمختلف الهدايا[3]، أو حتى كحجاج لبيت الله.

هنا نقف كذلك على أهمية القنادسة من الناحية الاقتصادية:

---

[1] الناصري (محمد بن عبد السلام) ،الرحلة الناصرية الكبرى ،تح: المهدي الغالي ،ج1،ط1،منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ،2013،المملكة المغربية ،ص184

[2] الغيثاوي،مرجع سابق ،ص139

[3] الغيثاوي ،منجد الولهان ،ص94

أ.معبر هام للقوافل التجارية القادمة من وإلى السودان عبر الساورة وتوات أو توات الساورة.

ب.ممرا لركب الحجيج انطلاقا من الجنوب والجنوب الشرقي للمغرب مرورا بقير-الساورة-توات وصعودا إلى قورارة –القليعة- ورقلة....

ج.مواكب المريدين والزوار القاصدين زوايتي القنادسة وكرزاز[1].

دون أن ننسى عدم وجود سلطة سياسية فعلية تحكم المنطقة إضافة للظروف الاجتماعية المزرية التي عرفتها البلاد.

تتكلم المراجع الفرنسية حول الحماية التي وفرتها الزاوية الزيانية للمنطقة ومن أهمها ما ذكره لويس رين "أضحى معروفا عند العام والخاص أن اختصاص الزيانيين هو قيادة القوافل وحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق فلا يستطيع تاجر توجيه قافلة بضائع إلى الجنوب دون التأكد من الحماية الزيانية لها"[2].

بناء كذلك على كرامات التي وردت في فتح المنان ومنهل الضمآن* حول معاقبة اللصوص، صرح ديبون وأكسافيي في هذا الشأن "عرف الشيخ بصرامته في معاقبة اللصوص وقطاع الطرق حتى أن أغلب الكرامات التي رويت عنه كانت في هذا الصدد وهو الأمر الذي توجس منه اللصوص فكانوا يتجنبون القوافل التي يتقدمها مقدمو الشيخ أو أقاربه أو أتباعه، لقد أصبح ذكر الشيخ عند قطاع الطرق مرادفا لشرطي الصحراء"[3].

-تعطينا إيزابيل إيبراهارد (1877-1904م) إضاءة مهمة حول مسألة الحماية من ذلك أنها بعد خروجها من البيض إلى الزاوية الزيانية بالقنادسة رفقة الخادم الجيلالي وهو من البيض بعد حصولها على رسالة توصية من أحد المريدين الزيانيين في عين الصفراء وكان محتواها إستضافة المثقف التونسي "سي محمود ولد علي" الذي يسافر من زاوية لأخرى بغرض الدراسة لأنها كانت تسافر متنكرة في زي رجل. تضيف بعد وصولها إلى بشار خصص لها "قدور بن بركة" كمرشد من زاوية القنادسة الذي رافقها حتى دخولها الزاوية[4].

من جملة ما كتبته الصحفية إيزابيل كشاهد على قصر القنادسة حول مسألة الأمن التي لعبت فيها الزاوية دورا أساسيا في ظل غياب السلطة الحاكمة، إغارة القبائل المجاورة للزاوية، كما تصور طبيعة قطاع الطرق المتواجدين في ذلك الوقت، وخلاصتها أن أفراد من آيت خباش ينتمون لآيت عطا، سرقوا قطيع من الغنم(الحراق/الماعز)، وساقوه بعيدا إلى بوذنيب، وعندما تبين أنه ملك للزاوية

[1] المرجع نفسه ، ص ص 92-93

[2] Rinn,Marabouts et khaouans ,p412

* مما ورد من كرامات حول معاقبة اللصوص في منهل الضمآن نذكر"ومن كرامته رضي الله عنه و نفعنا ببركاته آمين أن جاء من اللصوص قطع الطريق على رجل من تلامذة الشيخ و سلبه مما كان عليه من الثياب فعندما وصل ذلك اللص إلى منزله ضرب بضربة بعالية في بطنه حتى خرج منها مصارنه فلما وقع له ذلك جاء الناس إليه وهو يعالج الموت فسألوه ما سببك ومن فعل بك هذا هذا قال سببي قطعت الطريق على رجل فقير من تلامذة الشيخ محمد بن أبي زيان فسلبته من حوائجه فكل ما رأيتموه و ما أنا فيه فمن الله و الشيخ...".التازي ،مصدر سابق ،ص146

[3] Octave Depont ,Xavier Coppolani,les Confrérie Religieuses Musulmanes, Alger, typographie et lithographie Adolphe Jourdan ,imprimeur-libraire-editeur,p498

[4] السبتي(معلم)، إيزابيل ايبرهارد،اللغز الدائم (جوانب خفية من حياة الفارسة المسية)، الجزائر، ص131.

تدخل أشراف بوذنيب وألزموا هذه القبيلة إعادة القطيع إلى زاوية القنادسة، وفي هذه الحادثة دلالة كافية على المكانة أو الهيبة التي بناها الشيخ للزاوية. ومن أشهر مقولات الشيخ التي رددتها الألسنة " من أراد الهنا فليأتي إلى هنا"[1].

وحديث إيزابيل هذا أكد عليه ودعمه تصريح الرحالة" رين "الذي بناه على ملاحظات، من معاينة ميدانية، حيث يقول.."أن الملفت للإنتباه هو غياب سور دفاعي، يحمي القرية التي أصبحت مع مرور الزمن قصرا كبيرا، يضم مجموعة من الأحياء، وهي ظاهرة انفردت بها القنادسة دون غيرها من القرى الصحراوية وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى الأمان، الذي كان الشيخ يوفره للبلاد من اللصوص ليس في القنادسة فحسب بل في القرى المجاورة[2] "، وهنا تقول إيزابيل":لن يغامر أي تاجر في المنطقة...قبل أن يعين له مرابو القنادسة مرشدا ويكتب له رسالة تحمل ختمه ومباركته"[3] فقد كان الزيانيين هم مرشدي الصحراء.

ممن درسوا الزوايا والطرق الصوفية الأنتربولوجي إدموند دوتي*، حيث يعتبر أن الشيخ بن أبي زيان من الصلحاء الذين خصصوا بركاتهم لمطاردة اللصوص في الصحراء"...وأشهر هؤلاء في هذا الاتجاه الشيخ مولاي زيان مؤسس زاوية قنادسة (بواد كير بأقصى الجنوب الوهراني المغربي) حيث قضى طول حياته يسخر بركته في طرد اللصوص الذين مازالو منتشرين في كل الصحراء...ومنذ ذلك الوقت لم يعد أحد يستطيع أن يجرأ على السطو على قطعان والقوافل الموجودة في حمى صلحاء القنادسة، وكذلك القصر الذي تحفظه 'بركة' أجدادهم ليس له باب ولا سور حماية"[4].

يتكلم دوتي كذلك حول الحماية* التي وفرتها زاوية القنادسة للقوافل التجارية بدفع إتاوات لقاء تأمين الطريق من الغرب الجزائري إلى وسط إفريقيا" كما أن موارد صلحاء القنادسة تتكون من الإتاوات التي تؤديها القبائل من أجل ضمان سلامة مرورها حيث أسسوا عرفا دينيا يتكلف بموجبه الزيانية بتأمين رحلات تلك القوافل...يفرض واجبا نقديا على كل قافلة من أجل ضمان سلامتها مابين الغرب الجزائري ووسط افريقيا"[5].

---

[1] محابيب(نور الدين)، الهوية والمقدس في الخطاب الصوفي الجزائري (الطريقة الزيانية نموذجا)، مذكرة لنيل درجة الماجستير في علم الإجتماع، ، جامعة وهران، 2007-2008، ص168.

[2] المرجع نفسه، ص168

[3] إيبرهارد(إيزابيل)، الطريق إلى القنادسة، ص9

[*] يعد إدموند دوتي(1867-1926) أحد أهم مؤسسي أنتروبولوجيا الدين بالمغرب الكبير ،ولد شمال شرق فرنسا ،والتحق سنة 1892م بالأوراس الجزائرية ليشتغل مساعدا إداريا ،التحق بوهران محررا 1894م ،كما أصبح أستاذا للآداب بمدرسة تلمسان 1898 .كتاب الصلحاء هو عبارة عن مقال هام نشر 1901م بمجلة تاريخ الأديان حول الإسلام المغاربي.(من غلاف كتاب الصلحاء)

[4] دوتي(إدموند) ،الصلحاء(مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر) ،تر:محمد ناجي بن عمر ،د.ط ،أفريقيا الشرق ،2014،المغرب ،ص129.

[*] يقوم بواجب الحماية حسب دوتي شخص يطلق عليه اسم 'زطاط' أي حارس القافلة ،بحيث يتكلف أن يوصلك من قبيلة لأخرى ،وأن وظيفة الزطاطة جلبت مداخيل كثيرة للصلحاء باعتبار الاحترام الذي يحيطون به كفيل بضمان أمان المسافرين. دوتي ،الصلحاء ،ص130

[5] المرجع نفسه ،ص130

إضافة لتوفير الحماية ومعاقبة اللصوص، قامت الزاوية الزيانية بتقديم خدمات اجتماعية أخرى اعتمادا على الكرامات والسلطة الروحية للشيخ بن أبي زيان كالدعاء للناس بالخير والصلاح والخلفة-زيادة المال والبركة فيه-التداوي وإشفاء المرضى.بناءا على ما تقدم تحولت الزاوية لمؤسسة استشفائية تسهر على تقديم المساعدة والحماية[1].

3.2. الخلفية التاريخية للدور الريادي للزاوية الزيانية:

أولا:الخلفية السياسية والاجتماعية:

-السلطة القبلية والطرق الصوفية (الزيانية):

من الناحية الفكرية والروحية سجل التصوف والطرق الصوفية حضورا كبيرا خلال منذ القرن 17م في المغرب الكبير عامة والجزائر خاصة، كما أننا لا نستطيع أن نتكلم عن الطرق الصوفية بمعزل عن القبيلة هذه الأخيرة التي احتوت الطرق وساهمت في إبرازها ونشرها، من خلال توفير البيئة الملائمة لتواجدها كما فعلت قبيلة ذوي منيع التي طلبت من الشيخ بن أبي زيان الاستقرار بالمنطقة حسب رواية لويس رين.

يتميز المجال الصحراوي بخصائص طبيعية –ذكرت سابقا- وأخرى اجتماعية على هذا الأساس تمت الإشارة لما ذهب إليه ابن خلدون حول القبيلة في الإطار المفاهيمي والذي من جملته الدور الأساسي للعصبية في المجتمع القبلي خاصة إذا اقترنت بالوازع فمن المعلوم أن العصبية قوامها النسب و القرابة بمختلف أشكالها من أجل المصالح المشتركة "...من هنا كانت العصبية تقوم في مظهرها على النسب حقيقيا كان أو وهميا في حين أنها في العمق تقوم على تنازع البقاء و الكفاح من أجل العيش في إطار وحدة العصبة وتضامن أفرادها ،وحدة وتضامنا تندمج فيها سواء بسواء ،المصالح المادية للعصبة والاعتبارات المعنوية التي بها تتقوم شخصيتها ويتأكد كيانها"[2] ،على هذا الأساس يتبين أن الصراع القبلي ذو صبغة اقتصادية لا يمكن أن نغض الطرف عنها [3].

مما تقدم يمكن استقراء الطرح الخلدوني حول العلاقة بين الدين والعصبية القبلية فيما ذهب إليه الجابري "إن العلاقة بين العصبية والدين، كما يفهمها ابن خلدون علاقة تآزر وتعاضد وتكامل الدين يزيد من قوة العصبية بالتخفيف من مظاهر التعصب"[4]. فالطريقة الزيانية كتب لها النجاح بفضل احتواء قبائل المنطقة لها والعكس صحيح.

-لاحظت إيزابيل اعتماد الزاوية الزيانية على خدمات قبائل كل من :ذوي منيع وأولاد جرير، آيت عطا في شؤون التموين والأمن.

تجدر الإشارة في هذا المقام لما ذهب إليه الأنتربولوجي عبد الله حمودي في كتابه"الشيخ و المريد" حول النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة لما له من أهمية في فهم العلاقة الرمزية القائمة بين الشيخ والمريد، والتي فعلا وجدت لها إسقاطا لها في معالجة الموضوع وهي من نماذج السلطة القائمة على البعد الروحي الصوفي الذي يميزه طابع الولاء "سادت في المغرب والجزائر معا

[1] Octave Depont ,Xavier Coppolani,op-cit,p499

[2] الجابري ،العصبية و الدولة ،ص ص176-177

[3] المرجع نفسه ،ص177

[4] الجابري ،العصبية و الدولة ،ص189

طقوس الرعاية ونظمها وبدهية التعلق السياسي الذي تبنته علاقة الشيخ /المريد ...ووجد الاندماج الاجتماعي والمحلي للسلطة بالمغرب أبدالا أقوى في البنيات العشائرية التي بقيت نشطة وحية...."[1].

على العكس من ذلك ساهمت الطرق الصوفية حسب حمودي من خلال خطاب الولاية في بعث المجموعات البشرية والتأسيس لمفهوم الترابط الاجتماعي "...إن خطاب الولاية والولاء يتحكم في عملية إنشاء المجموعات البشرية وإقامتها أي إرادة التجمع ومباشرة النشاط التاريخي والسياسي. وهذا معناه أن العلاقة بالله وتأسيس الحلقة اللدنية يتجهان نحو القداسة بوصفها مؤسسة مبلغة تسعى إلى تكوين عشائر بشرية. وإذا كان هذا البناء تعبره انتقادات ومواقف متعارضة فهذا لا يمنعه من أن يؤسس هذا الترابط ..."[2].

في حين يرى جاك بيرك في السياق ذاته أن المد الصوفي الذي وصل البوادي خلال القرن السادس عشر ظاهرة ترتبط بتحول المورفولوجيا الاجتماعية، ومن جملة ما يلاحظ عبر إفريقيا الشمالية هو ظاهرة تعدد الصلحاء التي يغطيها الإطار القبلي[3]. وفي كثير من الحالات يستطيع الولي الصالح توحيد المجموعة واحتواء القبيلة من خطابه "إن الصلاح ظاهرة تقابل العنف والخشونة، و"المرابط " ينبثق من كل هذه القوى، ففي بعض الحالات نجده يجمع شمل الجماعة ويوحد القرية، وفي حالات أخرى يجسد الولي عودة تنظيمات عتيقة تعاني من غلبة تنظيمات مستحدثة. وإذ يسيطر على القبيلة، فإنه يكشف في آن واحد البنية التي قامت بتعويضها"[4].

يصل بنا الحديث في هذا الصدد إلا أن العلاقة متبادلة بين القبيلة والطريقة الصوفية، فكل واحدة حاولت احتواء الأخرى بطريقتها الخاصة.

- وضعية السيبة:

كما تمت الإشارة سابقا أن منطقة بشار تنتمي إلى الصحراء الجزائرية الكبرى ذات المميزات الجغرافية والبيئية المختلفة، تعمر فيها العديد من القبائل، والسؤال الوجيه الذي يطرح نفسه في هذه الجزئية: ما طبيعة ومميزات التنظيم السياسي للمنطقة خلال القرن التاسع عشر؟

لكن قبل الإجابة على هذا السؤال يجب الإشارة للوضعية التي عرفتها قبل وأثناء هذه الفترة

*مصطلح السيبة:

السيبة أو السائبة كما يعرفها لنا محمد الخليفة بن سيد المختار الكنتي "السائبة الخالية من سلطان أو أمير أو رئيس خير يدفع من ظلم الظلمة، وجور الجورة وعدوان العادين وسطوة العادين..."[5]

---

[1] حمودي (عبد الله)،الشيخ و المريد –النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة-،تر:عبد المجيد جحفة،ط3،دار توبقال للنشر،2003،ص214.

[2] المرجع نفسه، ص244.

[3] بيرك(جاك)،في مدلول القبيلة بشمال افريقيا ،المقال موجود بكتاب (الأنثروبولوجيا و التاريخ حالة المغرب العربي)،تر:عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق،ط2،دار توبقال للنشر،المغرب،2007،ص124.

[4] المرجع نفسه، ص124.

[5] الكنتي (محمد الخليفة)، الرسالة الغلاوية ،تح:حماه ولد سالم، ط1، مطبعة المعارف الجديدة،2007،الرباط-المغرب، ص201

تعرف كذلك السيبة أو البلاد السائبة هي التي لا تخضع إلى السلطة المركزية مباشرة أي مستقلة ذاتيا[1].

إذن مما تقدم يتضح لنا أن مصطلح السيبة يشير إلى مفهوم اللاخضوع، واللاحكم، وبالتالي عدم الانصياع لأي سلطان سياسي.

-السيبة أثناء الحكم العثماني للجزائر:

بعد عملية الاستنجاد التي تم على إثرها انضواء الجزائر تحت الحكم العثماني منذ القرن السادس عشر، أصبحت الجزائر إيالة عثمانية تابعة سياسيا وإداريا للأتراك العثمانيين. فمن الناحية السياسية تميز الحكم العثماني للجزائر بعدم التدخل وترك مجال للحرية في ممارسة الحياة والنشاطات الخاصة "فمن ناحية الوضع الدولي للإيالة الجزائرية نجده متجاوبا مع سياسة الأتراك العامة تجاه البلدان التي انضوت تحت حكمهم، والتي تتصف بعدم التدخل في الحياة الخاصة لهذه الأقطار الخاضعة، مما يجعل الحكم التركي ظاهريا أكثر منه حقيقيا لا سيما في المناطق النائية، حيث يتضاءل تدخل السلطة المركزية وينعدم نفوذ الحكام".[2]

-أما الناحية الإدارية فقد تم تقسيم الجزائر إداريا إلى أربع أقاليم هي: دار السلطان يضم الناحية الوسطى للبلاد، بايليك الشرق وعاصمته قسنطينة، بايليك الغرب ومركزه وهران بعد انتقاله من مازونة ثم معسكر، بايليك التيطري عاصمته المدية[3] .

هنا نتساءل عن محل الجنوب والصحراء من هذا التقسيم؟

يلاحظ على هذا التقسيم الإداري، أنه لم يحتو المناطق الجنوبية للجزائر: إما نتيجة غموضها بالنسبة للعثمانيين، أو بعدها واتساع مساحتها، وعدم اهتمام الأتراك بالمناطق الصحراوية لتركيزهم على عملية الجهاد البحري ومداخيل البحرية، يقدم سعيدوني تبريرا للمسألة استنادا على رواية لويس رين بقوله "أن حدود القطر الجزائري جنوبا كانت غير واضحة، كما أن الأراضي الخاضعة مباشرة للسلطة التركية لم تكن تتعدى سدس مساحة الجزائر الشمالية الحالية، حسب المعلومات التي أثبتها بعض الكتاب الفرنسيين"[4].

في هذا الصدد تشير العديد من المراجع التاريخية لوضعية السيبة التي كانت تعيشها الصحراء الجزائرية في ظل الحكم العثماني، ومن ذلك عموم بلاد الساورة ومنطقة بشار التي ظلت بعيدة عن السلطة العثمانية وسلطة قبائل المخزن المغربي[*].

---

[1] مياسي(إبراهيم)، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية (1837-1934)، د.ط،دار هومه، الجزائر ،2009 ،ص365

[2] سعيدوني(ناصر الدين) ،النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني(1792-1830) ،ط3،البصائر الجديدة للنشر و التوزيع ،2012،ص

[3] المرجع نفسه ،ص ص 28-29

[4] سعيدوني،النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني(1792-1830) ،ص29

[*] المخزن المغربي: تم اشتقاق لفظ مخزن من خزن أي حافظ واكتنز وادخر كما استعمل لأول مرة بشمال إفريقيا في شكله الرسمي خلال القرن 2هـ/8م، لنعت صندوق حديدي كان لإبراهيم بن الغالب أمير إفريقية يخزن فيه أمواله التي يحصلها من الجبايات بغية إرسالها إلى الخليفة العباسي ببغداد، بمعنى أن استعمال اللفظ كان للدلالة على الجانب المالي. أنظر: بياض(طيب)،المخزن والضريبة والاستعمار(ضريبة الترتيب1880-1915)، د.ط،2011، أفريقيا الشرق، المغرب، ص68.

أما من الناحية الاصطلاحية:"ثمة شبه إجماع على أن مؤسسة المخزن أصبحت منذ العصر الحديث تدل على مجموع التنظيمات الإدارية، التي تشكلت تدريجيا بفعل الضرورات الداخلية المتمثلة في الحفاظ على الأمن وتحصيل الضرائب، ثم التزامات السياسة الخارجية وما واكبها من تبادل المبعوثين وتوقيع الاتفاقيات

فإذا استثنينا المدن الكبرى في الجزائر التي دخلت تحت الإدارة العثمانية بصفة مباشرة، فإن بقية المناطق ظلت تحكمها الروابط القبلية والعشائرية، حيث عجز الأتراك عن إخضاع هذه الجماعات والقبائل مما جعلهم يعيشون معيشة حرة طليقة[1].

ثانيا:الخلفية الروحية:

-البعد الروحي للطريقة الزيانية:

تأسست الطريقة الزيانية في مدينة القنادسة بفعل استقرار الشيخ محمد بن أبي زيان كما هو معروف، فكتب لهذه الطريقة الانتشار في كامل الجنوب الغربي والفضاء الصحراوي، لم يكن ذلك وليد صدفة، بل نتيجة اجتهاد الشيوخ الزيانيين في نشر تعاليمها وبسطها للناس.

من جهة أخرى لعب الحضور الروحي للشيوخ ساهم بشكل كبير في انتشار الطريقة واستقطاب عدد كبير من المريدين، من خلال الكرمات التي وظفوها في خدمة الناس دورا بارزا، كما نلاحظ تنوع الكرامات بتنوع الأدوار التي لعبتها الزاوية. وتعدد المهام داخل الزاوية (الخلفاء-المقدمون...)، تنم عن الشمولية والمسؤولية الكبيرة التي أخذتها على عاتقها.

4. خاتمة:

من هذا المنطلق يمكن القول أن الزاوية الزيانية مثلت سلطة الضبط الاجتماعي أو كمؤسسة اجتماعية نظمت حياة السكان من خلال الأدوار المختلفة التي قامت بها استنادا على السلطة الروحية للشيخ محمد بن أبي زيان. على هذا الأساس تلخص لنا الصحفية إيزابيل ايبرهارت (1877-1904) كأبرز شاهد على قصر القنادسة والزاوية الزيانية، أن الولي أمحمد بن أبي زيان نجح في تنظيم أتباعه ضمن جمعية سلمية تهتم باستقبال الضيوف واللاجئين، كما تخبرنا عن وظيفة الإطعام كقيمة اجتماعية بحيث تم القضاء على المتسولين وإدماجهم مهنيا كخدم وعمال أو رعاة[2].

استنادا على الوضعية السياسة التي عرفتها المنطقة عملت الزاوية على الفصل بين الناس وإقامة الصلح تحت إطار رفع المظالم ونجدة المستغيث.

الوضعية الاجتماعية والمزرية أدت إلى انتشار ظاهرة اللصوصية مما دفع الزاوية لمحاربة هذه الظاهرة بمختلف الوسائل (دعاء الشيخ على اللصوص-معاقبتهم-استعمال الرقاس كوسيط وقائد للقافلة خوفا من اللصوص وكممثل للشيخ).

إن كل هذه الأدوار مجتمعة أدت إلى انتشار الطريقة الزيانية في المغرب، الجزائر وحتى بلاد السودان، حتى بلغ عدد المريدين في الجزائر في أواخر القرن 19م إلى3400، كما صورها لنا لويس رين[3].

التجارية وافتداء الأسرى، كل ذلك أضفى على المخزن تدريجيا شكل مؤسسة حقيقية". أنظر: جادور(محمد)، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، د.ط،2001، مؤسسة الملك آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، ص385.

[1] الجيلالي (عبد الرحمن بن محمد)، تاريخ الجزائر العام، ج4 ، ط2010، شركة دار الأم ة،الجزائر، ص105.

[2] نابتي(علي) ،أمحمد بن أبي زيان القندوسي(طريقته الصوفية و الأدوار المتعددة لزاويته) ،المواقف ،العدد11 ،ديسمبر 2016 ،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، معسكر ،الجزائر ،ص ص 301-302

[3] Rinn,Marabouts et khaouans ,p415

5. قائمة المراجع:

المصادر:

-ابن منظور ،لسان العرب مج 10، مج 14، ط 3، بيروت ، د ار صادر، ، 1994.

-الزبيدي (محمد مرتضى) ،تاج العروس من جواهر القاموس ،ج26 ،تح : عبد الكريم العرباوي ،مر : مصطفى حجازي ،د.ط ،الكويت، مطبعة الحكومة،1990.

- ابن خلدون (عبد الرحمن) ، المقدمة، ط1،بيروت،دار الفكر، 2004.

-التازي (الحاج علي بن عبد القادر)، منهل الضمآن ومزيل الهموم والكروب والأحزان في كرامة شيخنا العارف بالله سيدنا الحاج بن أبي زيان، مخطوط بدون رقم التصنيف، القنادسة، بشار، الخزانة القندوسية.

- اليعقوبي (عبد الرحمن بن محمد)، فتح المنان في سيرة الشيخ محمد بن أبي زيان، مخطوط بدون رقم التصنيف القادسة ،بشار الخزانة القندوسية.

-الناصري (محمد بن عبد السلام)، الرحلة الناصرية الكبرى، تح: المهدي الغالي، ج1، ط1، المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،2013.

-الكنتي (محمد الخليفة)، الرسالة الغلاوية، تح: حماه ولد سالم، ط1، الرباط-المغرب، مطبعة المعارف الجديدة،2007.

2.المراجع باللغة العربية:

-النجار(عامر) ،الطرق الصوفية في مصر (نشأتها و نظمها وروادها –الرفاعي-الجيلاني-البدوي-الشاذلي-الدسوقي) ،ط5،د.ت، مصر، دار المعارف.

- إيبرهارد(إيزابيل)، الطريق إلى القنادسة، الطريق إلى القنادسة (في ظلال الإسلام الدافئة)، تر: عبد القادر ميهي، ط1، واد سوف، الجزائر، دار الثقافة، 2012

-سعد الله (أبو القاسم) ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1(1500-1830) ، ط1، بيروت،دار
الغرب الإسلامي،1998.

-العقبي (صلاح مؤيد)، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، د.ط، لبنان دار البراق،2002.

-دائرة المعارف الإسلامية، مج10، تعريب: أحمد الشنتاوي وآخرون، مر: محمد مهدي علام بيروت، وزارة المعارف، 1933.

-الغيثاوي(مولاي التهامي)،منجد الولهان في معرفة و مآثر الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان قدس الله روحه، د.ط، عين مليلة ،الجزائر، دار الهدى.

-بوعرفة (عبد القادر)، معجم الفرق والنحل في الجزائر، ط1، الجزائر، رياض العلوم للنشر والتوزيع، 2005.

-دوتي(إدموند)، الصلحاء (مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر)، تر: محمد ناجي بن عمر، د.ط، المغرب، أفريقيا الشرق.

-حمودي (عبد الله)، الشيخ والمريد –النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة-، تر: عبد المجيد جحفة، ط3، المغرب، دار توبقال للنش،2003.

-بيرك(جاك)، في مدلول القبيلة بشمال افريقيا، المقال موجود بكتاب (الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي)، تر: عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، ط2، المغرب، دار توبقال للنشر.

-مياسي(إبراهيم)، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية (1837-1934)، د.ط، الجزائر، دار هومه، 2009.

-سعيدوني(ناصر الدين) ،النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني(1792-1830) ،ط3، الجزائر، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع ،2012

-بياض(طيب)، المخزن والضريبة والاستعمار (ضريبة الترتيب1880-1915)، المغرب، أفريقيا الشرق، 2011.

- جادور(محمد)، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، المغرب، مؤسسة الملك آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء،2011.

-الجيلالي (عبد الرحمن بن محمد)، تاريخ الجزائر العام، ج4، الجزائر، شركة دار الأمة، 2001.
-نابتي(علي)، أمحمد بن أبي زيان القندوسي(طريقته الصوفية و الأدوار المتعددة لزاويته) ،المواقف ،العدد11 ،ديسمبر 2016 ،كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ،معسكر ،الجزائر.

3.المراجع باللغة الأجنبية:

-Rinn(Louis) ,Marabouts et khaouans ,étude sur l'islam en Algérie , Adolphe Jourdan, libraire-éditeur ,Alger,1884.
- Gouvion(Marth),et(Edmond), kitab Ayane el-Marhariba ,imp.oriental,fontana frères ,Alger,1920.
-Octave Depont ,Xavier Coppolani,les Confrérie Religieuses Musulmanes, Alger, typographie et lithographie Adolphe Jourdan ,imprimeur-libraire-editeur.